ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ·

في الهزيع الاخير من ليل الثلاثين من رمضان (١٣٣٧) ركبت من دمشق عربة مع صديقين عزيزين قاصدين الى القابون وفي ظاهرها وقفنا لحظات الى ان وصلت خيالي ووصل صديق في اخر راكباً فرسه فركبنا وعاد ذلك الحيبان الى المدينة · وكان بدأ في تلك الساعة الاشراق في الافق والسكون لم يزعج مسخوذاً على الاراضي والرياض فلم يكن نسمع من بعيد غير قعقعة اجراس المحملين بالمكاريين وصياح الديكة او عواء الكلاب وما كدت اعلو متن مطيتي حتى ترامى الى مسمعي صوت مؤذن القابون ينادي « هلموا الى طاعة الله يرحمنا ويرحمكم الله » فقلت كلمة حق لو جرى العمل بالطاعة وما يلزم لها لرجوا ولكنها جعلى جهلة ثقال ومعان شريفة لا يعمل بها وعادات ألفت بمزل عما فيها من الاسرار النافعة في صلاح المعاش والمعاد ·

التفت الى الوطنة الدمشقية الفاتنة اخيرة وهي احب بقعة الى قلبي في الارض وقد كثر في افقها شفق الفجر فذكرت طرفاً من ايامها البيض والسود · وذكرت الغوطة الغناء بقودكرت مطاعم البشر وانحطاط اخلاقهم وعقولهم فقاد ذلك الى التفكر في شقاء الانسان بالانسان وموت بعض الحياة كل وافتقار مئات لاغناء افراد وشقاء ربوات لسعادة عشرات وتعب فريق لراحة امة فتخيل لي تعجيب صنع المولى في خلقه سبحانه لا يبقى العالم على حال هو المعز المذل القابض الباسط المغني المفقر يقلب الارض ومن عليها ولا يريثها الا عباده الصالحون ·

سارت بنا مطيتانا فاجتزنا قرية برزة ومعربا ولم تشرق الشمس الا وقد

فطعنا اراضي معربا واشرفنا على اكامها فالتفتنا الى ما وراءها وقد تجلت لنا بعض بقاع البوطة والمرج من خلف الجبال فاقمنا عليها نظرة الوداع واخذنا السير الى سبعة ومنها الى دير مقرن فكفير الزيت فدير قانون فكفر العواميد وفي هذه القرية بتنا ليلة عيد الفطر.

ولما اشرفنا هذا الوادي وكنت مررت به مرارا كثيرة منذ بضع عشر عاما شيئاً من التغير والارتقاء المحسوس فالفلاح فيه لا يزال ينتظر موسم الفاكهة ان يسلموا اشجاره من لفحات الجليد يراقب ذلك السنة ويفاوض برمانه وجوزه وتفاحه ويكثراه ويثمنه وغبنه والا فيضطر في الاكثر الى الاستدانة على الموسم المقبل واذا كان على شيء من القوة والجلد يرحل الى بعض الكور المجاورة كقرى وادي الجم او البوطة يعمل فيها اشهر الصيف ليأتي بقية الشتاء بمؤونة تكفيه من الجملة في كمه وكانونه

ولذلك لا ترى هذا الوادي بقرية دير حتى سوق وادي بردى لا يحمل من الحبوب ما يبيد عوز سكانه بعض السنة لقلة اليوسة على جروده وجباله ولان اكثر تربته صخرية تحتاج الى العمل الكثير على الطرق الزراعية الحديثة لتأتي اكلها. اما الاشجار وبعض الخضر والبقول التي ينتفع بها الفلاح هنا فالفضل لنهر بردى في ارواحها يأخذ من مائه في مجاري يعملها بقدر حاجته او اكثر

ولقد اخذت اثمان الفواكه تأتي اصحابها بارباح اكثر من السنين السابقة خصوصاً مذ تم استئمار السكك الحديدية في سورية كسكة بيروت — دمشق — حوران وسكة دمشق — حيفا — المدينة وسكة دمشق — حلب — يرمجك (البيرة) فاصبحت ثمارهم تصدر الى الجهات القاصية

وكانوا يقدمون اكثرها في سني الخير خلقاً للدواب او يلقونها في الطريق لان العلة في نقلها من محلها الى دمشق او بيروت مثلاً على الدواب لاتقوم باجرة المكار ودابته .

نعم لم ار ارتفاء محسوساً في حالة فلاح وادي بردى وانى يتم له ارتقاء وليس له طريق يسلك غير ماحفرته اقدام المارة وحوافر الدواب والماشية وجرفته السيول والرياح متذقرون . فالطرق المعبدة المطروقة لا اثر لها في هذا الوادي ولعل ذلك ناشيء من كون حديث عهد بالحكومة المنظمة فقد كانت معظم قراه من قبل تابعة لاقضية بعيدة عنها الآن بعدان غدا من مركز قضاء الزبداني على بضع ساعات فقد يات يرجى بفضل قائمقامه المغيور ان تنظم لاهل قضاء الزبداني طرق غير طريق السكة الحديدية تصل بين قراهم وبين دمشق حاضرة الولاية ليتيسر للناس المقدو والرواح من ايسر السبل . وما اخال ذلك متعذراً على الحاكم اذا حث اهل كل قرية ان يقوموا بانفسهم لتمهيد طريقهم ايام انقطاعهم عن العمل كفصل الشتاء مثلاً لما يجنونه من الفوائد التي تعم لهم عنها او يعلمونها بواسطة الموظفين الامناء وان كانت هذه الطريقة لاتخلو من محظور لانها تؤدي الى السخرة والسخرة ممنوعة بنص القانون الاساسي . وتمهيد الطرق وبث الامن من جملة الفروض المفيئة على كل حكومة .

وبعد فانه لاوجود في وادي بردى لسائر المرافق التي يتمتع بها الفلاح في البلاد المتمدنة وذلك لان الحكومة الاستبدادية الماضية لم يهمها من الفلاح الا ان تأخذ منه لا ان تهب له سبيل الاخذ . فكان قصاراها تكثير الجباية وتوفير الضرائب واخذ من يريده للخدمة العسكرية اما امتاع الاهلين

بالوسائل الصحية وتعليمهم الطرق الزراعية الحديثة المأخذ وفتح سبل المواصلات ورفع علم الامن وتعليمهم الضروري من القراءة والكتابة فكانت امور لا تعرفها لا في وادي بردى فقط بل في جميع انحاء البلاد العثمانية وسهولها وجبالها .

ومن الغرب ما رأيناه في وادي بردى ان بعض قراها تحفر القبور لموتاها امام الدور فترى حي الاحياء مع حي الاموات ومادري هل يأتون ذلك بالقصد حرصاً على رفات موتاهم من ان تسطو عليها الوحوش المكاسرة في مدافنها اذا لحدوها بعيدة عن العمران او بقصد خطوات ليتهم يؤثرون دفن الموتى امام اعينهم ليذكروا كل ساعة وبارقة مصير الانسان الى دار البقاء ويزهدوا في دار الفناء فلا يهتمون باسباب الهنا والصفاء .

ومما عمت به البلوى في الفلاحين انك ترى القاذورات بغضاً تعمي العيون وتخنق الانفاس فترى روث البهائم وغائط الآدميين وسط الدور وخلفها وقدامها وعن ايمانها وشمائلها . ولا بقية من عادة النظافة والنظر ورثها المسلمون بالتسلسل عن آبائهم وشيء من جودة الهواء في الحلة في القرى ما بقيت باقية لكان هذا الاقليم ومن حوله .

ركبت صبيحة العيد ورفيقي قاصدين سوق وادي بردى ولعلها سميت كذلك لان السوق كانت تقام فيها قبل مضي البيع والشراء على العادة في اسواقنا الباقية حتى الآن فيقال مثلاً سوق الاحد وسوق الجمعة وسوق الخيل وسوق الحمير . وهذه الاسواق امثال في اوربا . وبالقرب من السوق تضيق فوهة الوادي وبه لمع العمران ليخرج منه الى سفح وادي البرداني . وجبال السوق لا تخلو من نواويس قديمة على نحو ما تجدها في جبال الشام محفورة في الصلب في القمم والآكام

ومن السوق انتهى بنا نفس السير الى قرية عين الغضار من اعمال البقاع العزيز وهي القرية التي اشتهرت منذ عهد بعيد بفخارها الذي تطبخه اكثر بيوتها في تنانير خاصة وتبيعه في المدن الداخلية من اعمال دمشق .

وقد شعرنا بتغير المشاهد منذ اطللنا على عينا ورأينا بيوت القرميد التي بنيت بالحجر النحيت على المثال الذي نشاهده في اكثر بيوت سورية . وعلنا ان سبب ماشاهدناه من جمال المساكن في عينا تلك الاموال التي جلبها بعض سكانها من هجرتهم الى اميركا واجبرا حتى من لاتحدثهم انفسهم بالسكنى ثانية في عينا ان يظهروا غناهم بانشاء الدور المنظمة ليصح عليهم المثل العربي « ابت الدراهم الا ان تخرج اعناقها » « ان الغني طويل الذيل مياس » والاثر المشهور « ان الله يحب ان يرى اثر نعمته على عبده » وليس كاليوت ثم عين يسار وتدل على رمة . وبعد عينا مررنا بكامد اللوز فجب جنين فلالا فمعلول من وادي البقاع وفي هذه القرية بنا عهد رجل من اهلها انزلنا عنده واكرمنا ولم يعرفنا ومع حرصه على معرفتنا اكتفينا من التعريف بالتعريض وفي المعاريض مندوحة عن الكذب .

وقد سرت الى هذه القرية والى جميع قرى البقاع عدوى الهجرة وتناول الاغتراب السكان على اختلاف نحلهم ومن حديث كثير من البقاعيين تبين ان اهل كل قرية في الغالب يؤثرون في بلاد المهجر اقليما خاصا لهم ينزلونه او مملكة يوجهون وجهتهم اليها فيقصد مثلا اهل قرية كذا ولاية كذا من شمالي اميركا واهل القرية الفلانية يقصدون جمهوريات الجنوب وآخرون ينزلون كندا وغيرهم اوستراليا وفريق السنغال وبعض الترنسفال فكأن عدوى الانتقال تسري اليهم بالعشرة فلا يحب المواطن الا ان يقلد مواطنه

في مأتيه ومنازعه بل في سفالته وسعادته . وقد اذكر ناهذا بحال العرب في الفتح وبعده فكان القسيسون ينزلون بلد كذا والجاثليق اقليم كذا ثم لما امتدت الفتوحات وفتحوا الاندلس كان جند الشام يختار بقعة غير التي اختارها جند حمص والملك كان الجند يدعون كل بلد ينزلونه باسم بلدهم الاول كما يحاول بعض مهاجرة السوريين الآن مثل ذلك في الولايات المتحدة .

وفي اليوم الثالث قصدنا مشغرة فمررنا بجسرها المغرب المشتد على نهر اليعاني وانجدنا قاصدين جزين اول حدود لبنان الى الجنوب . ومشغرة اقصى بلد عامر بالزراعة والصناعة في البقاع الغربي وهي مشهورة الى الآن بديع الجلود للاحذية اشتهار مدينة زحلة اكثر والمسافة بين مشغرة من اعمال ولاية سورية وجزين من متصرفية لبنان ثلاث ساعات تعلو قمة عالية ثم تنحدر في واد عميق .

ومع ان قضاء البقاع من اعمر قضية ولاية سورية بزراعته خصب تربته وتوفر المياه الدافقة عليه من سفوح لبنان الغربي ولبنان الشرقي ومناخته لجبل لبنان الذي يحتاج لكل ما تنبته ارض البقاع من الحبوب والثمر ومع كثرة الاعيان الذين يملكون فيه المزارع والاراضي الواسعة ومنهم من انشأ فيه حقولاً انموذجية حقيقية و برفوا عليها الاموال الطائلة واستخدموا لها احدث الطرق الزراعية كالاراضي التي عمرها نجيب بك سرسق في عميق وبير محيش واقامها الآباء اليسوعيون في تعنايل — مع كل هذا العمران المستبحر وما تأخذه النافعة من اموال الاعشار كل سنة باسم الطرق والمعابر لا ترى في القضاء طريقاً مسلوكاً اللهم الا طريق الشام القديم الذي تركته شركة الدبليجانس لما انشيء خط بيروت الحديدي . وقيل لنا ان الحكومة

صح عزمها مؤخراً على انشاء طريق عجلات بين المعلقة مركز القضاء وبين مشغرة في غربه وان هذا الطريق وصل او كاد الى قرية عيتنيت ولعله جسماً لا اسماً كاكثر الطرق التي انشأتها الحافظة في الولايات فكانت هشاً بلا معنى واسماً بلا مسمى لم ينشأ عنها الا التعجيل في سلب نعمة الفلاح وخراب بيته باسم العمران وخدمة الاوطان .

وصف لبنان الطبيعي

٢

كنت في لبنان اشبه بابي زيد السروجي او ابي الفتح الاسكندري احتاج الى راوية مثل الحارث بن همام او عيسى بن هشام يروي كلٌ منهما لمثل الحريري او بديع الزمان تلك المظاهر التي اضطررت الى الظهور فيها لانجو من مخالب عدو مارق او جاسوس مخادع وليتيسر لي درس حالة البلاد بدون حجاب .

فقد قيل اكتم ذهابك ومذهبك وذهبك ولكن هذه القاعدة لا يرضاها منك اللبنانيون الاذكياء فتجدهم يحرصون كل الحرص على استطلاع طالع كل مصطاف بينهم او سائح في جبالهم والوقوف على مقصده ومبلغ ثروته والدين الذي يدين به . وربما كان سؤالهم عن الاخير قبل كل شيء لان عامتهم متدينون جداً فهم يسرون اذا شعروا انهم يتعارفون الى رجل يشاكلهم في المعتقد . واني لمن قضى عليه شدة اخلاصه في خدمة وطنه ودولته ان يصرح لهم بهويته وهو مشرّد طريد محكوم عليه بالجناية حكماً قره قوشياً !

ودعني رفيقي غداة وصلنا الى جزين وعاد الى الضيعة . وبقيت بحدي لا رفيق لي الا كتابي وفرسي . فانطلقت لساعتي من جزين قاصداً دير القمر فاجتزت اليها تارعياطور والطارة وغيرها والطريق بين هذه القرى القديمة عامرة من وراء العاية تمشي فيه وسط الشجار الزيتون وفي غابات غنياء في الشوف كما ان شجار الصنوبر كذلك في قضاء المتن . ودير القمر هو مركز الجبل القديم وصلت اليه قبيل الغروب وقد بدت القصبة بنيتها الشاهقة لائحة في حليها وعكست شمس الاصيل على زجاج نوافذها بسطوحها فاختلطت الحمرة بالصفرة بالخضرة بالزرقة وكان اجمل منظر تقع عليه عين انسان . واهل الدير كمعظم سكان الجبل موصوفون بالرقة وحسن العشرة يتحببون الى الغريب كيف كانت حاله . وفي هذه القصبة الى اليوم جامع قديم من القرن العاشر بناه احد امراء لبنان ولا يزال الدروز يحرصون على سلامته فيمهدونه بالعمارة وان لم يكن له من يقيم فيه الصلاة .

وقصبة الدير بكثرة سكانها وتوفر مرافق الحياة فيها اشبه بالمدن منها بالقرى وهي مشهورة بتجارة الحنطة تحمل اليها من حوران فتوزع في الاطراف . وليس دير القمر وحيداً في نوعه باكتظاظ الاقدام فيه فثمة زحلة لا يقل سكانها عن خمسة وعشرين الف نسمة واوصل بعضهم تقديرها الى خمسة وثلاثين . وتكثر النفوس في حماة ورأس المتن وبرمانا وبيات مري وبعبدات وبيت شباب وبكفيا وبسكنتا وبعبدا والشوير وحصرون والشويفات وحدث الجبة وبعقلين ومجدل المعوش وعاية ومعلقة الدامور وجزين وجبيل والمتين وتنورين وعمشيت وغزير وجونية وكفر شيان

والبترون وهدن والهرمل وأميون وزغرتا وكوسبا وفي غير ذلك من القصبات التي يعد فيها النفوس بالالوف والمئات

والقرى والمزارع متصلة خصوصاً في الجبال التي ترتفع كثيراً عن سطح البحر ولا يتعذر العيش فيها في الشتاء لكثرة ثلجها وبردها وجليدها واعاصيرها وما اشبه لبنان وقراه ومزارعه لا تقل عن ثلثمائة وستة وخمسين قرية (١) الا بقصر نعيم جميل واسع الارجاء محفوف من اطرافه بالرياحين والازاهير المطرية وغرفه الكثيرة تلك المساكر والضياع لا يكاد المتجول يمل من مقصورة حتى ينتقل الى أخرى وما اسرع وصوله اليها من تلك الطرق المعبَّدة وهذا القصر مزدانة افنيته واروقته باقصى ما تخص به يد الصانع من بدائع الزينة ويد المخلوق لم تقصر كثيراً في تمهده .

معنى لبنان الابيض وهو اسم عبراني سمي به لتعمم قممه بالثلج في الشتاء والربيع وبعض الصيف . وقد ورد ذكره في الشعر القديم فقال النابغة الذبياني :

حتى غدا مثل نصل السيف منصلتاً يقرو الاماعز من لبنان والأكما

وقال احمد بن الحسين بن حيدرة المعروف بابن الخراساني الطرابلسي من المحدثين :

دعوني لقاً في الحرب اطفو وارسب ولا تنسبوني فالقواضب تنسب
وان جهلت جهال قومي فضائلي فقد عرفت فضلي معدٌّ ويعرب
ولا تعشوني اذ خرجت مغاضباً فمن بعض مابي ساحل الشام يغضب
وكيف التذاذي ماء دجلة مرقاً وماء لبنان الذُّ واعذب

(١) دليل لبنان لابراهيم الاسود

فمالي وللأيام لا درّ درُّها تشرّق بي طوراً وطوراً تغرّب

وانشد المتنبي في مدح ابي هرون بن عبد العزيز الاوارجي في قصيدة :

بيني وبين ابي علي مثله ثمّ الجبال ومثلهن رجاه

وعقاب لبنان وكيف بقطعها وهو الشتاء وصيفهن شتاء

وقال البحتري :

وتعمدت ان تنزل ركابي بين لبنان طلعاً والسنير

مشرفات على دمشق وقد اء رض منها بباش تلك القصور

وقال الجغرافي اليزه ركلو من المتأخرين يصف (١) لبنان : اذا ما القيت بصرك من البحر الى سلسلة لبنان المستطيلة رأيت من هذا الجبل منظراً مهيباً فيلوح لك ازرق او ورديّاً في الصيف ومشتعلاً في الشتاء والربيع بجلباب ثلجه الفضي واذا تصاعدت الابخرة في الجو البست قممه الشامخة ثوباً شفافاً هوائياً غاية في اللطف بيد ان جمال هذا المنظر لايخلو من سطوة الشدة فترى ذلك الجبار يتمطى بضلوعه الشديدة ويتطاح برأسه الشامخ لايقوم في وجهه قائم على ان النظر الى محاسن هذا الجبل عن كثب هي دون جماله عن بعد فترى ظهره على طول ١٥٠ كيلو متراً اقهب اجرد لاتكسوه الخضرة . اوديته متشابهة ومشارفه كأنها قدت على قالب واحد .

وقال الاب لامنس : ان لبنان اشبه بجدار عظيم من الصخور وجهته من الجنوب الغربي الى الشمالي الشرقي وفي الجهة الشرقية تراه يقطع بغتة اما من جهة الغرب فهو يتفرع فروعاً متعددة على هيئات شتى من آكام وبطون وسهول وربى متسلسلة يدخل بعضها في بعض واذا استثنيت هذه

(١) تسريح الابصار للاب لامنس

التفرعات الثانوية والتجعدات الغير المتسقة تحققت ان سلسلة لبنان العظمى قد وضعها الخالق على صورة نظامية وجانب كبير من البساطة ولذلك قلما ترى في لبنان تلك المناظر المتباينة التي تقر بها العين وانما يقع البصر على حاجز كبير في حدود الافق يتواصل على خط مستقيم لانكاد قمه العليا تمتاز عن بقية اقسامه .

ووصف شكاه ايضاً فقال : ومن تفرع الجبل من الجنوب الى الشمال وجده يتزايد علواً وكذلك يتسع عرضاً ولو تأمل الناظر من علو الجو عرض لبنان بين صيدا ومشغرة لوجده يزيد عن ٢٩ كيلومتراً وهو يبلغ بين بيروت وقب الياس ٣١ كيلومتراً ومعظم اتساعه بين طرابلس والهرمل ٤٦ كيلومتراً فيكون لبنان على كل ذا شكل مربع منفرج عن زاويتيه العاويتين اه .

ولقد قدروا مساحة لبنان بثلاثة آلاف وخمسمائة كيلو متر بحده جنوباً صيداء واعالها وشمالاً طرابلس وكورتها وشرقاً ولاية سورية وغرباً البحر المتوسط ومدينة بيروت . هذا هو حده الجديد وهو المعروف بلبنان الغربي والاصل في التسمية . ويطلقون اسم لبنان الشرقي على وادي التيم وجبل الشيخ (حرمون التي على قضاء حاصبيا وراشيا وما اليهما والبقاع فاصل بين اللبنانين . وحده الفدماء فقالوا : (١) انه جبل مطل على حمص يجيء من العرج الذي بين مكة والمدينة حتى يتصل بالشام فما كان بفلسطين فهو جبل الجل وما كان بالاردن فهو جبل الجليل وبدمشق سنير وبحلب وحماة وحمص لبنان ويتصل بانطاكية والمصيصة فيسمى هناك اللكام ثم يمتد الى ملطية وسميساط وقاليقلا الى بحر الخزر فيسمى هناك القبق قال وفي

(١) الازهري في معجم البلدان لياقوت الحموي

لبنان سمون لساناً لا يعرف كل قوم لسان الآخرين الا بترجمان (؟) وفيه من جميع الفواكه والزروع من غير ان يزرعها احد وفيه يكون الابدال من الصالحين . وقال القلقشندي ثم يمتد لبنان الى الشمال ويجاور دمشق واذا صار في شمالها سمي جبل سنير .

وعلى ذكر الصالحين نقول ان لبنان مشهور منذ القديم بانقطاع الناس الى العبادة فيه قال ابن جبير في كلامه على العلم والمتعبدين في الشام في القرن السادس للهجرة ما نصه : وكل من وفقه الله بهذه الجهات من الغرباء الانفراد يلتزم ان احب ضيعة من الضياع فيكون فيها طيب العيش تام البال وينهال الخير عليه من اهل الضيعة ويلتزم الامامة والتعليم او ما شاء ومتى سئم المقام خرج الى ضيعة أخرى او يصعد الى جبل لبنان او الى جبل الجودي فيلتقي بها المريدين المنقطعين الى الله عز وجل فيقيم معهم ما شاء ويتصرف الى حيث شاء . ومن العجب ان النصارى المجاورين لجبل لبنان اذا رأوا به احد المنقطعين من المسلمين جاؤا لهم القوت واحسنوا اليهم ويقولون هؤلاء ممن انقطع الى الله عز وجل فيجب مشاركتهم وهذا الجبل من اخصب جبال الدنيا فيه انواع الفواكه وفيه المياه المطردة والظلال الوارفة وقل ما يخلو من النبل والعبادة . وقال ابن بطوطة في القرن الثامن : ان جبل لبنان من اخصب جبال الدنيا فيه اصناف الفواكه ولا يخلو من المنقطعين الى الله تعالى والزهاد والصالحين وهو شهير بذلك ورأيت فيه جماعة من الصالحين قد انقطعوا الى الله تعالى ممن لم يشتهر اسمه .

قلنا ولذلك ترى المعروف اليوم بالاحصاء ان في لبنان نحو اثني راهب ورابعة لهم ١١٨ ديراً ماعدا الكنائس والبيع والصوامع التي لا تخلو قرية عن

واحدة او عدة منها ولا يقل دخل الرهبنات والاديار فيه عن مئة وخمسين الف ليرة في السنة كما اكد بعض العارفين . وهو نحو ثلث ايراد لبنان باسره . وفيه الحابس التي ينقطع فيها الى النسك بعض الرهبان فيقيمون في مغارة او مكان منفرد يتعبدون في الخلاء . زرت احدهم في مديرية القاطع ورأيته متوفراً على كرم له هناك حتى جاد واخصب يعمل فيه بيده ولا يكاد يأكل منه متى انضج ويصرف شطراً من وقته في النسك والصلاة . ولو قام كل امريء بالواجب عليه فسعى للعاش سعي هذا الحبيس وعبد الله وخافه لارتفعت الشرور من البشر وقل احتياجنا للحكومات وقوانينها . وهذه الحابس (١) قديمة في لبنان ترد الى عهد هيلاريون الناسك او قبله وفي عدلون بين صيدا وصور على مقربة من صرفند عند الجسر صخر عال احفر فيه نحو مائتي كهف اتخذها الرهبان مساكن لهم .

وبالنظر لتوسط لبنان من سورية كان ناعماً بمعزل عنها بطبيعته فكأن عاو قممه — واعلاها ظهر القضيب علوه ٣٠٦٣ متراً ثم في الوسط جبل صنين وعلوه ٢٨٠٦ متراً واعلى نقطة في جبل الشيخ ٢٨٦٠ متراً — وتكاثر ضبابه وكثرة اشجاره وقربه من البحر كلها داعية الى كثرة الثلوج والامطار فيه فيتكون من عصاراتها ومسايلها انهار ذات شأن عظيم في عمران الشام . فمن سفوح لبنان تنبجس اعظم انهار سورية فنهر العاصي الذي يروي اراضي وادي حمص وحماة والناعكية ينبجس من المرمل في شمالي لبنان ونهر الليطاني الذي يروي بلاد صيدا وصور وتنتفع به بعض بلاد البقاع ينبع من لبنان ونهر طرطس المسمى بنهر ابي علي ويعرف قديماً بقادیشا يخرج من

(١) تسريح الابصار

سفح لبنان ونهر الكلب وبيروت للذان يسقيان مدينة بيروت وضاحيتها
ينبجسان من السفح الغربي من لبنان ونهر البرصوني الذي يسقي زحلة وبعض
البقاع هو لبناني المنبع ايضاً . ومن لبنان الشرقي ينبجس الاردن « الشريعة »
كما ينبجس من غرب لبنان الغربي نهر ابرهيم

فلبنان في فائدته السورية اشبه بجبال الالب في سويسرا او بذيل مصر
من حيث امتداد المنافع . وللالب والنيل المثل الاعلى . وفي لبنان عدة ينابيع
منها نبع الاربعين ونبع صنين وبقليع والبن والسمل والباروك وعين زحلتا
وقد زرت هاتين الاخيرتين

وصلنا الى الباروك في زهاء ساعتين من دير القمر مارين ببيت الدين مركز
متصرفية لبنان الصيفي وكفر بيخ وبعض المزارع وقرية الباروك في واد
مفرج قليلاً تنبع عينها على قيد غلوة منها اما المصطافون فيها فيختارون في
الاكثر النزول بالقرب من رأس العين في نزل هناك او خيام لهم يضربونها
وسط الحراج المشوقة على آكام الباروك وجبالها فيوفر لهم بذلك الى جودة
الماء التي مابعدها جودة فيما اظن — طيب الهواء ونسيم الارز والصنوبر
الظليل البليل . ومن الباروك الى عين زحلتا ساعة على الراكب وفي هذه
القرية فنادق حسنة لكثرة ورود المصطافين اليها لتمتع بنبع الصفا وقاع الريم
اللذين ينبعان في ظاهرها وتسريح عيونهم بجمال موقعها وخصب واديها
وحراجه الفيحاء . وعين الباروك وعين زحلتا على مسافة واحدة في العلو
وملؤهما يكاد يكون متشابهاً والطريق من عين زحلتا الى عين صوفر ملأى بطريق
السكة الحديدية نحو ساعتين ونصف في العربة او على الراكب وهذه العيون
ينتفع بها كلها في سقي الحدائق في القرى البعيدة والقريبة

ومن صوفر قصدت حماة وقرنايل فصلبا فعبدات فجدس فبكفيا فبيت شباب فالشاوية فالفريكة . وهنا قضيت مع صديقي الابر امين افندي ريحاني الكاتب الشاعر المفكر الشهير اياماً رائقة وبها ركبت البحر من بيروت قاصداً القطر المصري فاوربا . هذا وقد كان سبق لي منذ سنين ان زرت بعض قرى كسروان والبترون وزحلة فاكون هذه المرة بما اخبرته من حال هذه الاقضية الثلاثة الاخرى وهي جزين والشوف والمتن خليقاً بان اتكلم على الجبل خصوصاً ولم يقتضني منه الا قضاء الكورة فقط .

نبذة في تاريخ لبنان

٣

لم يخرج لبنان في دور من ادواره عن كونه مستقلاً حصيناً كل من ساده يكون في الاعم من حالاته الى الشدة والمضاء يتعب من يسودهم وقد يتعب به جيرانه من اهل البلدان الاخرى . ولقد كان تاريخه السياسي كتاريخ معظم المقاطعات السورية استقلالاً وخضوعاً للغريب ولكن ايام الاستقلال اكثر من غيرها في غيره من اقاليم الشام

والغالب ان قاصيته خضعت للفينيقيين كما خضعت نواحيه واستولت عليه حكومة الايتوريين العربية في عهد الروم . والايتوريون شعب شديد الشكيمة مولع بالحروب اتكفأ من حوران والبقاع بلاده ونزل البقاع فانشأ له مدينة شالسيس او عين جر جعلها عاصمة واخذ يشن الغارات على لبنان ويتقدم الى الامام حتى تيسر له ان تسور قمه واخضعه لسلطانه ثم انحدر الى سواحل الشام وجعل مدينة طرابلس مركزاً ثانياً (١) واكثر من كانوا

(١) تسريح الابصار

يتأذون من بأس الايتوريين سكان جبيل وبيروت فلم يكونوا يملكون معهم لانفسهم طولاً ولا حولا

ثم خضع هذا الجبل للفاتحين واستولى على زمامه المردة وهم قوم من نصارى الفرس اتى بهم الروم ليدفعوا عن لبنان غزوات الايتوريين فنزل المردة (٢) في الشمال اوائل القرن الاول للهجرة ثم جاء التنوخيون ونزلوا جنوبيه وتوالى عليه الأمراء المعنيون فآل عماد التركمان ومن سلالة المعنيين الامير فخر الدين الذي عد اليه السلطان سليم فتح سورية ومصر بولاية الشام ثم الشهابيون ومن امرائهم الامير بشير الثاني ومن امراء لبنان جان بولاد (جنبلاط) الذي حكم الشام سنتين في القرن العاشر فيما ذكر .

وروى التاريخ ان سكان كسروان اخذوا في القرن السادس اوائل القرن السابع للهجرة يطيلون ايدي اعتدائهم على اهالي جبيل يحظفون المسلمين ويبيعونهم من الاعداء فكان عساكر المسلمين معهم بين عدوين هم في جبال صنين او الغليين كما سماهم ابو الفداء وجيوش التتار التي انهالت على هذه البلاد كسيل العرم ان نجا المسلم من التتري لايفوز من الكسرواني (سنة ٦٩٩) ولما سار شيخ الاسلام ابن تيمية سنة ٧٠٤ لنصح اولئك العصاة فلم ينجع النصح فيهم فاتلهم الجيوش الشامية قتالاً هائلاً بزعامة جمال الدين اقوش الافرم نائب دمشق . والغالب ان سكان كسروان كانوا اذ ذاك خليطاً من النصيرية والموارنة وغيرهم كما كان سكان ساحل كسروان من اليمانية .

(٢) هذه اللفظة فارسية ومعناها مرد الرجل

وما زال نواب الشام (١) الاشرف بن خليل قلاوون والناصر محمد بن قلاوون يحاربون التتر في كسروان حتى اخرجوهم وجعلوا بدلهم قوماً من التركمان في بعض السواحي وبقي كثير من المتاولة معهم كما فعل صلاح الدين يوسف لما استخلص ساحل لبنان ولا سيما جبيل واعمالها من ايدي الافرنج سنة ٥٨٣ فرتب (٢) في جبيل قوماً من الاكراد لحفظها فبقيت على ذلك الى سنة ٥٩٣ فباعها الاكراد الذين كانوا بها ورحلوا عنها ثم عادت تلك السواحل فاستولى عليها الافرنج بعد صلاح الدين لان الكسروانيين كانوا نصراء الصليبيين يمدونهم بالذخائر والرجال

ولتلك امر حسام الدين لاجين نائب دمشق بان تخرب بلادهم فخربت على عهده وعهد غيره من حكامها ولا سيما على عهد الافرم كما تقدم اذ قضى بقطع كرومهم وتخريب بيوتهم وقتل منهم مقتلة عظيمة وتفرقوا في البلاد ايدي سبا .

ولما انتشر التركمان بكسروان سنة ٦٠٦ ثار كوهم (٣) بشمالة فارس وجعلوا دركهم من حدود انطلياس الى مغارة الاسد على حدود معاملة طرابلس فكانوا يمنعون من يستكرونه ان يتعدى دربند نهر الكلب الا بورقة طريق من المتولي او من امراء العرب كما كانوا يفعلون بقطية (٤) على درب مصر وجعلوا التركمان ثلاثة ابدال كل بدل يقيم في الدرك شهراً لحفظ الموافي والدروب . وفي سنة ٦٨٦ صدر منشور من ملك الامراء

(١) تاريخ حوادث لصانع بن بجير
(٢) معجم البلدان لياقوت
(٣) تاريخ بيروت
(٤) قرية في طريق مصر وسط الرمل كانت لخطارين مصر والشام

لاجين نائب الشام عن الملك المنصور فلاقوهم الى جمال الدين وزين الدين ابن علي انه اذا بلغهما توجه المقر الشمسي سنقر المنصوري بالعساكر الى جهة كسروان والجرد ان يتوجها اليه بجموعهما وأسرتيهما وان من سبى امرأة منهم كانت له جارية او صبياً كان له مملوكاً ومن احضر منهم رأساً فله دينار وان سنقر توجه لاستئصال شأفتهم ونهب اموالهم وسبي ذراريهم . وهذه الفقرات على شدتها لم تصدر عن امراء الشام الا بعد ان طفح كأس صبرهم من تمرد الكسروانيين

واختلف العلماء في اصول سكان لبنان والارجح انهم خليط من الفينيقيين والآراميين والروم والعرب مزجتهم بوتقة واحدة فعدوا مزيجاً واحداً كما هو حال معظم البلاد فانك ترى كثيرين من اسرات لبنان المشهورة نزحت من بلاد حلب وحماة وحمص وحوران في الداخلية ولاسيما في القرون الخمسة الاخيرة . ذكر المؤرخون ان معاوية نقل الى طرابلس وجبيل وبيروت وصيداء قوماً من الفرس يسكنونها . وذكروا ايضاً ان ابا جعفر المنصور العباسي لما قدم دمشق من بغداد قدم عليه من بلاد المغرة الأمير ارسلان واخوه الامير منذر بجماعة من عشيرتهما فطابت نفس الخليفة بهما فامرهما ان يسكنا في جبال بيروت الخالية من السكان وانعم عليهما بقاطعات معلومة فسكنوا وبعضهم في كسروان واخذوا يشنون الغارات على مجاوريهم وفي بعضها احرقت قرى من كسروان السفلى وقوى الامراء الارسلانيون بعشائرهم وعمروا العمائر في الشويفات وجوارها .

اما الموارنة فكان اول منشأهم في شمالي سورية في الاغلب ينتسبون الى قديس لهم اسمه مارون وهم طائفة كاثوليكية لا يكادون يخالفون عن الكثلكة

في امر جوهري في المعتقدات جاؤا شمالي لبنان اولاً وما زالوا يعتنقون ويطردون سكان الجبال الاصليين او ينصرونهم ويدمجونهم في جملتهم حتى بلغوا الجنوب واحتفظ الدروز بلادهم بما فيهم من الشدة والاباء .

وزعم بعضهم ان الموارنة لم يسكنوا كسروان قبل القرن السادس عشر للبلاد لانه لا يوجد بين اديار كسروان اليوم دير واحد يسبق عهده القرن السابع عشر وان جبيل والبترون كانتا على الحياد مع الصليبيين فلم تحازا اليهم ولا للمسلمين استحباب البلاد الا ان هذا لم يمنع من الرواية الثانية من مالأة الموارنة الصليبيين ودلالتهم على الطرق ونجدتهم (١) لهم وثباتهم معهم على العهد الى النهاية حتى خرجوا من سورية سنة ١٢٠٢م ومن اجل هذا اضطر حكام البلاد ان يحرقوا ويقتلوا ويسبوا بعض القرى القريبة من طرابلس مثل اهدن وبقوفا وحصرون وكفرسارون والحدث

وما برح لبنان يقسم بين امراء المقاطعات يحكمونه على النحو الذي كانت عليه صورة الحكم في البلاد العثمانية قبل تنظيم الولايات . يقوى اليمانيون تارة والقيسيون اخرى والناس معهم في امر مريج ومن النوبات القيسية قوة يمانية ماوقع في الربع الاول من القرن السادس عشر للبلاد ون الامير فخر الدين المعني اليمني وجمال الدين الارسلاني القيسي . قال المقريزي وعشير الشام فرقتان قيس ومن لا يتفقان قط وفي كل قليل يثور بعضهم على بعض .

ونشأ حزب آخر وهو الحزب اليزبكي نسبة الى يزبك جد الشيخ عبد السلام العماد زعيمه والجنبلاطي نسبة الى الشيخ علي جنبلاط زعيم الآخر

(١) تاريخ البطريرك الدويهي وتاريخ المقاطعة للكسروانية للخوري منصور طنوس الحاج

وذلك سنة ١٧٢٩ — ١٧٥٤ وامتد في لبنان ولم يزل له اثر كما نشأت احزاب اخرى كالمملوفي والمكاري ومثل هذه الاحزاب قد لاتخلو من حدوث فتن تهرق فيها الدماء وتكثر الأيامي والايتام كما فعل الجماديون واحرقوا بلاد جبيل والبترون فخربت جميعها ونزح سكانها الى بلاد ابن معن وكانت العداوة بين بني سيفا وبني معن سبباً في تخريب الجبل ايضاً .

ومن الوقائع التي لتمت فيها الاحقاد تلك الوقعة التي جرت في القرن العاشر عقيب ان نهب بعض امراء لبنان الصرة السلطانية من جون عكا بينما كانت محمولة الى الاستانة فجمع ابراهيم باشا صهر السلطان مراد بن السلطان سليم العساكر من مصر وقبرص ودمشق وحلب وقدم بها الى مرج عرجموش قرب زحلة وامسك طريق البحر والبقاع على الدروز فقتل نحو ستمائة منهم واسر بعض الامراء .

وما زالت حال الجبل في اقبال وادبار تقع اليوم فتنة العاقورة وغداً وقعة مرجلاتا وبعده وقعة ارض خلدة ثم فتنة برج البلول وبعد ذلك وقعة عين دارة حتى اقامت له الدولة سنة ١٨٤٢ عمر باشا النمسوي والياً فلم تطل مدته حتى منحت الدولة الجبل امتيازات وقسمته في السنة التالية الى مقاطعات . وتعرف الاولى (١) بقائمقامية النصارى وهي الشمالية تمتد من نهر البارد في عكا الى طريق دمشق مع بعض قرى ساحل بيروت تولاها الامير حيدر اسماعيل اللمعي وتعرف الثانية بقائمقامية الدروز وهي الجنوبية تمتد من طريق الشام الى منتهى جبل الريحان في الشمال مع قرى اقليم التفاح وبعض قرى ساحل بيروت وتولى شؤونها الامير احمد عباس الارسلاني

(١) دواني القطوف لعيسى افندي اسكندر المعلوف

اما قصبة دير القمر فكان يتولى شؤونها رجل من قبل والي ايالة صيداء وكانت قائمقامية النصارى مؤلفة من المتن وكسروان والبترون والكورة وزحلة وقائمقامية الدروز تشمل قضاءي الشوف وجزين وقسماً من غربي البقاع وبعض قرى مديرية الساحل الداخلة اليوم في قضاء المتن وفرض على لبنان في كل سنة ثلاثة آلاف وخمسمائة كيس

ودام الحال على ذلك الى سنة ١٨٦٠ وقد اشتعلت جذوة تلك الفتنة المشؤومة بين الدروز والنصارى في لبنان فمنحت الدولة هذا الجبل استقلالاً ادارياً بان جعلته متصرفية يتولى شؤونها حاكم مسيحي تنصبه الدولة كل خمس سنين او تجدد انتخابه بمصادقة الدول . وجعل مال لبنان سبعة آلاف او ثلاثة ملايين ونصف مليون قرش وضعت على الاعناق

ولحكومة لبنان موارد اخرى سنوية منها نحو اربعة ملايين قرش من بدلات حاصلات الاراضي الاميرية ورسوم المحاكم والمقاولات والعربات والعجلات وتعدل بثلاثة عشر الف ليرة ولا تتناول الدولة الآن شيئاً من مال الجبل ولا تعطيه وكانت منذ سنين تدفع اليها العجز في ميزانيته . وفي لبنان الف جندي لبناني بادارة امير الاي لبناني وفي بيت الدين فرقة من الجند المشاة لحافظ وعليها امير الاي بادارة حكومة لبنان .

وتحاول حكومة الجبل الآن ان تزيد الضرائب قليلاً ليتيسر لها القيام ببعض الاصلاحات والتوسعة على موظفيها كما وسع عليهم في سائر البلاد العثمانية بعد الدستور الآن معظم الاهلين يقاومونها وفاتهم ان الليرة منذ خمسين سنة لا تعادلها اليوم الا الثلاث ليرات او اكثر لوفرة الذهب وغلاء الاسعار . ولم يعتبروا ان هذا العمل الخلال بشروط امتيازاتهم ويخافون

ان يتدرج الامر الى العبث بقانونهم فيختل نظامه مع الزمن من اجل هذا ابى اللبنانون ان يبعثوا الى مجلس الامة العثمانية بنواب منهم يمثلونهم وفما نظن وطيدتهم تحول بينهم في الانتخاب القادم وبين ارسال نواب عنهم حتى يشتركوا وسائر اخوانهم العثمانيين في الغنم والغرم فليس من الانصاف ان يبقى جبلهم بدعوى قلة خصبه على الحياد وهو في وسط البلاد ويحسب جزءاً متمماً من اجزاء السلطنة العثمانية كيف تقلبت الحال وتعددت المظاهر والاشكال

غابات لبنان

٩

ليس في لبنان ارض تبلغ مساحتها مائة كيلومتر مربع بل غاية ما فيه من الاراضي منحدرات ومنعرجات واودية ضيقة ومسايل صغيرة وفيها جعل القدماء زروعهم واشجارهم واكثر الاراضي مما يصلح للشجر اكثر مما يصلح للبقول والغلات شأن جبال الارض في الاكثر . وليس في الأيدي نص قديم يشير الى اصناف زراعة لبنان منذ عرف التاريخ غير ما نقلناه في نبذة سالفة عن مؤلفي العرب من ان فيه اصناف الفواكه والزروع واكثرها مما ينبت بنفسه وهو كلام مجمل لا يشبع ولا يقنع . واذ كانت طبيعة ارض لبنان لم تتغير منذ عشرات من القرون كانت الزروع التي لا تناسبها ارضه ضئيلة فيه او تكاد تكون معدومة .

ولكن لم تخل ارض لبنان في زمان من ازمانها من الزيتون والتين والكرم والخروب والجوز واللوز والتفاح والصنوبر والتوت من الاشجار المثمرة والارز والسنديان والسرو والارز من الاشجار الغير المثمرة . وقد اكثر

القدماء والمحدثون من الكلام خاصة على تاريخ الارز لورود ذكره في الكتاب المقدس مرات ولان من خشبه بني قصر داود وهيكل سليمان والهيكل الثاني الذي جدد في ايام زربابل وسقف الهيكل المجدد في عهد هيرودوس وقبة القبر المقدس وسقف الكنيسة في بيت لحم . وقالوا انه ثبت ان ملوك الاشوريين والبابليين استعملوا في قصورهم خشب الارز وان المصريين ادخلوا من خشبه في بناء هياكلهم وقصورهم كما فعل الفرس وان الاسكندر المقدوني وضع من خشب الارز في السد الذي اقامه بين الجزيرة والشاطئ حيث كانت مدينة صور وكذلك ملوك السلوقيين في سورية ادخلوا خشب الارز في بناء دورهم .

وكل هذه الاخشاب قطعت من لبنان او من الجبال المجاورة له وكانت تحمل في العالب الى طرابلس وصيداء وصور حيث كانت دور الصناعات وقد انشأ بعض ملوك الاسلام لساطيل من خشب الارز وقالوا ان بيروت (١) كانت دار صناعة دمشق (ترسانتها او ورشتها) وبها عمر معاوية المراكب وجهز فيها الجيش الى قبرص وعمهم ام حرام واسمها العميصاء وقيل انه عمر من الارز الفاً وتسعمائة سفينة وبعد سنين جهز اسطولاً اضخم من الارز نفسه وتبعه غيره من ملوك الاسلام في اختيار الاخشاب للسفن من غابات لبنان وما برح كثيرون من المتدينين النصرانية يتبركون بشجر الارز ويحملون من غصونه قطعاً يقلونها من قارة الى قارة ومن مملكة الى اخرى وهو عطر رائحة اذا وضع في الدار ويحسن في المأتم اذا مسسته بيدك ولونه صفر فاقع مشرب بخطوط حمراء لا تبث به الارضة ولا يقبل فيه السوس

(١) تاريخ بيروت

ولذلك كانت دياره عرضة لكثرة حرص السوريين وغيرهم على استعماله في البناء وفصورهم وبيوتهم وهياكلهم وقناديلهم وتصاميم .

والعالب ان الحكومة السامية (١) القديمة في لبنان كانت تحتكر اربعة اشكال من الشجر تستثمرها لخزينتها وهي السرو والبرعو والارز والصنوبر وتسمح بقطع غيرها واحتطابه لو عرض فيه عود . وقد بدأ النقص في هذه الاشجار ولاسيما الارز منها منذ خمسة قرون لان اللبنانيين احتاجوا الى الاحتطاب واحتلوا يكثرون من زراعة التوت والكرم خصوصاً وقد جرت عادة بعض حكام لبنان اذا غضبوا على احد ان يقطعوا اشجاره ويخربوا داره والى اليوم لا يزال من الامثال العامة السائرة في الجبل « الله يقطع رزقه » اي مايملك من شجر و « الله يخرب زمنه » اي بيته

مثال ذلك ان الامير احمد الشهابي طرد المشايخ الجنبلاطيين المتاولة لما كثر بغيهم في كسروان فقروا الى بلاد بعابك فاحرق قراهم في القرن الحادي عشر وقطع اشجارهم وقد رسم مرة بيده (٢) نائب الشام لشهاب الدين ابن زين الدين صالح من امراء الغرب في لبنان وكان في دمشق ان يركب على خيل البريد ويتوجه الى قرية عين زحلتا من شوف صيدا ليكشف عما فيها من اشجار التوت النافع لعمل الشاب فلم يجده موافقاً ورجا الحب عدم تصديع اهل البلاد بقطعه وقلعه ومنذ ذاك العهد اجتهد اهل الشوف في قطع شجر التوت وتعطيل ثمره واستئصاله تلافياً تصدعهم الدولة من جهته . فذا ومثل ذلك ماشاهده في ايامنا من ان بعض اهل القرى البعيدة

(١) ديوان القطوف

(٢) تاريخ بيروت

عن مراكز الحكومة في الولايات الشمالية قد يستطيعون بقطع الشجر فراراً من غلم ملتزمي الاعشار واشتطاطهم في اقاصي المشور عليها اضعافاً مضاعفة

ولم يبرح شجر الارز موجوداً في عدة اماكن من لبنان على كثرة ما انتابه من البوائق فالقرب من معاصر الخمار على مقربة من بيت الدين غابة منه فيها نحو ٢٥٠ شجرة يسمونها الاهبل والخرى فوق قرية الباروك غير ملفتة وصديدة النمو لكثرة الامطار والثلوج والعواصف في تلك الارجاء وثالثة فوق قرية عين زحلتا وكان احرق اكثرها لاستخراج القطران منه وقطع بعضها ايام حاملة سنة ١٨٥٠ فتحدد بخشبه بعض بيوت المكوبين وبرامة بين الخا والصفورة في جرد جبيل من الاد كسروان وخامسة بين قرية تنورين والشرق صغيرة الشجر وعدة شجراتها نحو عشرة آلاف وسادسة بالقرب من الشرق على علو ١٩٨٥ متراً عن سطح البحر وهي مقصد السياح وفيها اضخم اشجار الارز وبلغ علو اطولها ٣٩ وقيل ٤٠ شجرة منها ١٢ كبرى واكبرها شجرات ثلاثة جذع كل منها نحو خمسة عشر متراً وارتفاع اطولها خمسة وعشرون متراً وقدروا عمرها بثلاثة آلاف سنة . ولا اثر الآن في سورية لشجر الارز الا في اماكن بين بلاد الضنية [1] في وادي القاص قعبه كثير من شجر الارز على ارتفاع ١٩٠٠ متر عن سطح البحر وبين سير وبيع السكر وفي الغابة الواقعة خلف وادي عرعم ويسمى عند اهله تنوب .

ولو توفرت همة ان الجبل اليوم على غرس شجر الارز لوافي لكان من شجر الاحطاب في الاماكن الخالية . ولا سيما في العشر القرن لما ات عشرات من السنين الا وقد نبتت قرية الجبل زيادة محمودة وكان مع طول الزمن

[1] شرق الابصار

لابن لبنان من الشجارة مورد آخر غير التوت والزيتون مثلاً لان شجر الارز لايجود في الغالب الا في مثل هذا العلو من الجبل بل من جبال سورية التي تشبه لبنان بطبيعتها وموقعها

واذا زاد عدد الغابات في سورية زيادة كبرى وتوفرت عناية ولايات بيروت وسورية وحلب ومتصرفيتي القدس والكرك بكاثير الغابات في الاماكن الخالية ولاسيما في الجبال التي يعرف انها كانت غابات عظيمة بتحول مناخ سورية وتكثر فيها الامطار بعد سنين ولا تعود تحتى اليبوسة وهلاك الزرع والضرع كما حدث بعض السنين فيأتي ذلك القرب الجيد في مدينتها كما يتضرر ان العمورة هو ويصبح مهب بين تكاثف حرارة بقله الامطار وارطبة صطوان الثانية على بقايا الاس القوي من برق

وليت حكومة لبنان تعدا فتفرض على كل اهالي ان يغرس عشر شجرات من اصناف الشجر التي تقتدي بها سائر حكومات بلاد الشام بعد تلك فلا يأتي علينا جيل الا وتصبح سورية غنية بغابتها كحتى سويسرا او اكثر والاشجار في بلادنا اكثر نموا منها في اوربا لما عرف من اعتدال الفصول ولطف الجو وقد جربت حكومة الجزائر فرنسا الغابات منذ زهاء خمسين سنة فكانت النتيجة ان كثر اليوم تعطال الامطار فيها على طريقة منتظمة وسيكثر خيرها كلما زادت اشجارها وعساها تقتدي في سورية بهذا المثال

الهجرة من لبنان

٥

منذ أمن السكان في لبنان على ارزاقهم وانقطعت شأفة ارباب المقاطعات الذين طالما اشتطوا في مطالبهم وعملت او كادت السلطة الافرادية الذوقية وقلت الاوبئة والزلازل التي كانت تحصد العمران والسكان حصداً كالزلزال الذي عاود لبنان مرات سنة ١٧٥٩ م وخرب القرى واهلك الناس والطاعون الذي حدث سنة ١٧٨٩ وعم لبنان كله واستمر اثنتان ثلاثين سنة (١) — منذ خفت العوارض الطبيعية والارضية اخذ كل فرد يحسن من حاله فنمت النفوس باستتباب اسباب الراحة واخذ المرسلون وغيرهم من رجال الدين منذ زهاء مئة سنة ينشئون ابناء الجبل على المنازع الدينية ويلقنونهم شيئاً من اللغات الافرنجية والعلوم العصرية كان الموارنة مازالت لهم علائق مع الكرسي البابوي في رومية يختلف اليه احبارهم منذ قرون وربما انتفع الجبل من هذه الصلة والعائد

ثم ان طبيعة الجبل تقضي التحسين والتنظيم والمسيحيون على الجملة يميلون الى الرفاهية ويقدرون طعم الحياة قدرها ولم يكد يدخل القرن الثالث عشر للهجرة في دور الهدم ويطلع القرن الرابع عشر حتى دخل جبل لبنان في طور جديد فكثرت طرق عجلاته حتى اصبح لديه منها الآن نحو الف كيلومتر تجمع بين قراه ومزارعه كالشبكة المحكمة وتهيء سبل التنقل على المصطافين في ربوعه واكثر هذه الطرق في قضاء المتن لانه ظهر لبنان ومقصد المصطافين من البروتيين والشاميين والمصريين وغيرهم . وفيه الآن سبعون كيلومتراً من الخطوط الحديدية منها خمسون

(١) تاريخ الطائفة الكسروانية

من طريق بيروت ودمشق وعشرون من تراموای شمالي لبنان .

وفي هذا الجبل ٢٥ (١) مدرسة داخلية كبرى وصغرى و ١٤ مدرسة اكليريكية و ٨ مستشفيات و ٢٠٦ من الخراج والقلايات و ١٤٧ من معامل الحرير و ٨١٩٧ من الدواليب وبلغت حاصلاته من القبايل (الشرانق) سنة ١٩٠٩ — ٣٠٠٠٢٧٠٣ اوقة ومن الزيت ٢٥٠٨٨ اقة وثمن الحرير الذي يخرج عنه نحو ثمانية ملايين فرنك في السنة . وكثر سكانه حتى عدوا ان في كل كيلومتر مربع ٦١ نفساً ولا يفوق الجبل في ذلك غير ولاية الاستانة وجزيرة سيسام (ساموس) . وسكانه الآن زهاء اربعمائة وثلاثون الف نسمة منهم ٢٥٠ الفاً من الموارنة و ١٦٠ الفاً من الروم و ٣٦ الفاً من الكاثوليك و ٥٥ الفاً من الدروز و ٣٣ الفاً من المسلمين (سنة وشيعة) و ١٥٠٠ من البروتستانت والباقون ارمن واسرائيليون وكلدان ولاتين وفيه قسمة من اهل الزر بيشون في مضاربهم خارج القرى واكثرهم فقراء يتكففون الاكف وقد احصى غليلموس الصوري في تاريخ الصليبيين عدد الموارنة في عصره فكانوا اربعين الفاً وما زال عددهم يربو على عدد وفياتهم وان هاجر كثيرون بعد ذلك الى قبرص وروديس والقدس ومالطة ولا يبعد ان تكون الامة الغربية انتشرت في جزيرة مالعة بواسطتهم .

ولا يسعنا وقد وصلنا من بحثنا في شؤون الجبل الى هذا الحد الا ان نرسل جملة في شغف اللبنانيين بالهجرة الى اميركا وغيرها من البلاد التي توهم ابن سورية ان المال فيها ملقى على الشوارع لا يحتاج الا لمن يمد يده ليتناوله مع ان اولئك المهاجرين لو صرفوا في بلادهم نصف ما يصرفون من

(١) دليل لبنان

الوقت والقوة في بلاد المهجر على طول السنة وحسبوا ما صرفوه في ذهابهم وايابهم وقدروا عدد من هلكوا منهم فرأوا ان المعدل واحد والفرق قليل لا يساوي هذا التعب .

والذي ظهر من قرائن الاحوال ان ابن لبنان لان اول فلاح سوري هاجر الى اميركا او جرأ سائر السوريين على الهجرة بعد وباء اشتهر عن القارة الاميركية من الحمى ولكثرة علائق لبنان مع الغرب قبل حادثة سنة ١٨٦٠ وبعدها دلان ان لبنان اكثر اهل جبال سورية علماً ونوراً ولوفرهم نشاطاً وهمة وتقحماً واقداماً بل ان مجموع القارئين والكاتبين فيه توفر من مجموع القارئين والكاتبين في مجموع مدن الشام

واول من دخل اميركا (١) من السوريين الخوري الياس بن القسيس حنا الموصلي الكلداني من سنة ١٦٦٨ — ١٦٨٣ واول من دخل اميركا الشمالية في القرن الماضي الخوري الاسباني الكثوري سافر اليها سنة ١٨٤٨ واتخذ معه ناصيف الشدودي واول من دخل الجنوبية المطران باسيليوس اسحاق سنة ١٨٧٥ وكانت غايتهم جمع الاحسان واول من دخل اميركا لغاية التجارة نجار من بيت لحم حملوا مصنوعاتهم الخشبية الرصعة بالصدف الى معرض فيلادلفيا سنة ١٨٧٦ ثم عادوا الى بلادهم بثروة وافرة فاغرى الرهم غيرهم واتصل ذلك بشمالي لبنان وامتد في كل سورية ثم كثرت الجالية السورية في العالم الجديد واوستراليا وجزر البحر المحيط بل وفي افريقية شرقها وغربها وشمالها وجنوبها

وقدر بعضهم ان ثلث المهاجرين يسكن اميركا وثلثهم يرجع الى وطنه

(١) دوائي القطوف ايسي الذي الكثدر الجلوف

والثلث الاخير بيوت . والظن ان الثلث الاخير مبالغ فيه وان كان عدد الهالكين في المهجر غير قليل . واحصي (١) عدد السوريين المهاجرين الى سنة ١٩٠٦ فكانوا مائتين وخمسين الفاً منهم ستون الفاً في ولايات المتحدة وخمسون الفاً في جمهوريات اميركا الجنوبية وخمسة وعشرون الفاً في اميركا الوسطى وعشرة آلاف في اوستراليا وبعض الجزائر والباقون في افريقية والهند والفيلبين وكوبا ومصر وعدد اليمانيين منهم ستون الفاً نصفهم ذكور ونصفهم اناث وربما كان الذكور اكثر

كثرت الهجرة منذ نحو عشرين سنة وذهب بعض سكان لبنان باقوامهم وذكائهم البيوت مفزعا في دار الهجرة بلاداً تحتاج الى ايد عاملة ونفوس لا تعرف التعب فاشتغلوا يعملون ويدخرون ويقترون على انفسهم في النفقة على خلاف عادة معظم المهاجرين الى اميركا من اهل اوربا مثلاً فآب من قدرت له السلامة منهم ولم يكن له رأس مال في هجرته غير صحته وثبات من الثيرات وكان اول عمله ان يعمر له داراً فوراء بائجر الخيت والقرميد على المثال الذي رآه في بيوت الحجر

وكثر تقليد الناس بعضهم بعضاً ومنهم من اشترى له ارضاً في بلده وطفق الآخر يتوخى ما جاء به ذلك الرأس المال القليل اما الافراد الذين اغتنوا فبدت ثروتهم بالاولى فقد استوطنوا البلاد التي هاجروا اليها على المثال العامي « في المطرح الذي فيه يرزق الصنى » ومع ان كثرة تعدادهم انتشرهم بالوجوه لا يبقى لهم مال متى عادوا الا نطاق لم تفرق الكثير بين نيويورك وشيكاغو وسان فرنسيسكو وبوانس ايرس وسان باولو مثلاً وبين

(١) دوائر التطوف

عتقوت وبسكنتا وعمشيت وعرنة ومعرونة اعالولادهم فيتطبعون بطابع البلاد التي ولدوا فيها واكثرهم لايتعلمون اللغة العربية ولذلك لايرجى البتة ان يعودوا الى موطن آبائهم وهذا القسم ممن خسرتهم البلاد حقيقة والذي يزيد في الحسرة عليهم ان بعضهم ذهب برأس مال من بلاده ولو طفيف وبعضهم على جانب من الاخلاق والمعرفة لم يعمدوا الى الطرق السافلة في تحصيل الثروة .

نفعت الهجرة لبنان واضرته وعندي ان المضار اكثر من المنافع اذ لايظهر الى العيان في الغالب الا الحسن . فقد يذهب الف مهاجر مثلاً الى بلد كذا ولا ينجح منهم الا واحد او اثنان فيأخذ الناس يتحدثون في امرهما وينسون اولئك المئات الذين يعملون اربع عشرة ساعة كل يوم في اشق الاعمال ولا يكادون يعدمون رسمين يوفون اجرة الطريق التي استلفوها من احد المرابين في بلدهم او باعوا في الحصول عليها ارضاً لهم ورثوها من آبائهم خل عنك من هلكوا بالامراض وغيرها وهكذا الحال في مجموع حالة لبنان من حيث منافع الهجرة ومضارها .

فان من نظر في الامور نظراً علمياً وشاهد تلك البيوت البديعة في قراه ومزارعه التي عمرت بمال اتى به المهاجرون من غير ارض لبنان وسمع بان فلاناً اصبح يملك كذا وكذا من الليرات وان بلد كذا يدخل اليه كل شهر من تحاويل امير كا مايقدر بكذا من الذهب — من شاهد ذلك وسمعه لايمتم ان تعروه هزة الفرح لبلاده وربما اعتقد ان الحال اذا دام على هذا المنوال واموال امير كا تتسرب الى بلادنا نصبح بعد بضع سنين اغنى من الاميركان ونتقل شطراً عظيماً مما عندهم من الذهب الوهاج وهذا منتهى السعادة البشرية

ليست السعادة بكثرة المال . السعادة شيء غير ما يتوهمه من هم في الشاليهات وتزينها من الظاهر وفي باطنها الشقاء والتعسة . قالت لي عجوز في صليا وقد سألتها اين زوجاكم ؟ ذهبوا الى اميركا وتركونا هنا نحرس لهم البيوت التي عمروها لتسرح فيها النيران عادوا ليجمعوا مكية اكبر من المال لان ما جمعوه لم يكفهم لانشاء هذه الدور على ما يكون وفرشها ونقشها ثم ان حالة البلاد لم تعجبهم بعد ان شاهدوا مشاهد اميركا . » وقول هذه العجوز الذي لعزني مزاء ولا تزال الاذن ترن صداه قد سمعت مثله من كثيرين من اهل لبنان رجال ونساء .

اي حسرة اعظم من ان تتوقع ام في كل اسبوع قدوم ابنها وقد تقضي الشهور ولا تتناول كتاباً منه او برقية تنشر عليها مئات سنين هي وأولادها وهو لا يكتب لهم بتقتهم فتضطر حينئذ امرأة المسكينة ان تحمل ليلها ونهارها اتعاب اولادها من كدها وما هي بفلاحة . واي اذى اكبر من ان تدخل القرية وتجد فيها عشرات من البنات عوانس يتدارن عروساً لان شبان القرية هاجروا واكثرهم لا يريد ان يتزوج وبعضهم تزوج من امرأة اميركية وزهد في اسرته وقريته لانه تمدن بزعمه ولا يليق به ان يتزوج الا من مدينة . ومن شاهد البنات العوانس في لبنان يدرك سر تعدد الزوجات في مثل هذه الحال ويحمل بان اقل سيئة من سيئات الهجرة انقطاع الالوف عن التناسل ولولا ذلك لكثرت نفوس لبنان كثرة تذكر لطيب هوائه وتوفر اسباب الراحة فيه .

وان دعوى من يدعون ان لبنان لولا الهجرة لاصبح خراباً مردودة من وجوه احدها انهم يعتقدون ان تلك الاموال التي دخلت لبنان وهي

تستخدم فيه الآن بفوائد حقيقية هي غنى لبنان وما الثروة في الحقيقة الا العمل ليس الا . فقد رأينا اسبانيا على عهد شارلكان يتسرب المال الى صناديقها باليدر والسبائك من اقطار المعمور لان هذا الملك كان يعتقد ان كثرة النقود والذهب في بلاد كاف وحده في غناها ولكن لم تكن بضعة عقود من السنين حتى امست اسبانيا افقر بلاد اوربا لان اهلها انقطعوا عن تعهد تربتها والاخذ بحظ من الصناعات اللازمة لهم والعلوم الرافعة من شأنهم

ان انصراف وجهة اللبنانيين وغيرهم من السوريين الى نزول اميركا وافريقية للاغتناء من خيراتها بسرعة على امل العودة الى مساقط رؤوسهم متى امتلأت اكياسهم وجيوبهم وحقائبهم قد حال دون تعهد ارضهم واستثمار صناعاتهم . ففي لبنان من الثمرات الطبيعية مايكفي اهله اذا زادوا ضعف عددهم الآن ومهما بلغت العناية اليوم بزراعته لايزال فيه فضل للعمل وميدان واسع للجد . ولا يشعر بذلك الا ارباب الاملاك . مثال ذلك ان « كدنة » الفلاحة كانت تساوي منذ سنوات قليلة خمسة وعشرين قرشاً فاصبحت اليوم تساوي ستين على حين ان غلات التوت مثلاً لم تزد على ثلث النسبة وذلك لقلة ايدي العاملين وارتفاع اسعار الحبوب وغيره من مقومات المعاش في البلاد ولان المهاجر اللبناني الذي كان فلاحاً حراثاً الى عشرين او ثلاثين جداً من اجداده اذا هاجر وقضى في مهجره ثلاث سنين ثم آب الى بلاده تكبر نفسه فلا يعود يتنازل الى معاناة الزراعة بل يفضل ان يعيش كما يعيش تجار اميركا وارباب الاملاك في بلادنا وهو لايملك رأس مال يكفيه سنة واحدة اذا ظل عطلاً من العمل .

في امثال العامة « انا امير وانت امير فمن يسوق الحمير » حكمة لطيفة

فانه تصدق على لبناني المهاجر فاذا احب كل فرد من المهاجرين ان يقلد الاعيان في عيشه ورفاهيته فمن يبني لتعهد التوت والزيتون وغرس الصنوبر والارز والسنديان والزان وحفر الآفية والاحواض وتمهيد الطرق ومعالجة الصناعات من حل الحرير وصنع الاقمشة المزركشة البسيطة وعمل الفرش والستور وانواع الزينة .

ولقد قال الاقتصاديون ان من جملة ماساعد المانيا على عظمتها التجارية الصناعية العلمية انك تجد في رجالها انواع العاملين ولا يستنكف كل عامل من عمله بل ولا يريد ان يعرف الا به فالالمان اشبه بجيش منظم فيهم الجندي كما فيهم الضابط الصغير والكبير والقائد العظيم وكل واحد منصرف الى عمله لا تحدثه نفسه ان يقلد رفيقه او يعتدي عليه بل يعمل في دائرته بما يستطيعه ويحسنه بامكانه الحال ولو جرى اهل بلادنا على هذا المثال لاصبحنا بعد جيل امة راقية حقيقة ولما رأينا الصغير يشكو لانه يريد تقليد الكبير واسبابه لاتساعده .

نحن لانجاري اولئك الذين يدعون ان لبنان كان خراباً لولا الهجرة لامور اقلها ان البلاد السورية واسعة واهل لبنان اليوم وقبل اليوم يستطيعون ان ينزلوا الاقاليم القليلة السكان المحتاجة الى العناية و يستعمروها فان فتشوا ذات اليمين وذات الشمال ورأوا طرابلس وعكا وحمص وبعلبك والبقاع ومرجعيون وصيدا تتناخم جبلهم وتحصرهم فيه فان لهم من بلاد الكرك وحوران وبادية الشام وبلاد حلب مثلاً مايكفي لاغناء مئات الالوف من الناس فلو نزلوا تلك البلاد الخاوية وعمروها بكدهم لاصبحت بعد سنين جنات زاهرة واقل ما في ذلك من المنافع ان هذه البلاد منهم على ايام قليلة

يستطيعون في استمارها ان يقضوا معظم ايام السنة في جبالهم .

وقد كتب قائمقام سروج من اعمال حلب منذ مدة في جريدة المقتبس يقول ان خمسين قرية في قضائه وحده محلولة وتباع كل واحدة منها بثلاثة آلاف قرش فلو اشتراها بعض ارباب الاموال من اللبنانيين وانفقوا عليها النفقات التي ترقي زراعتها وغرسوا فيها الاشجار واقاموا البيوت لما زادت ثلاثون سنة الا وهذا القضاء وحده من اخصب البقاع السورية فما بالك بما في غيره من الاقضية والالوية والولايات العثمانية من الخيرات

لا نوافق القائلين بالاخذ بسرعة فان مايأتي بدون عناء كبير قد يذهب في الاكثر كما جاء . ولكننا نوثر ان يوجه اللبنانيون ولا سيما في عهد الدستور السعيد وجوههم قبل البلاد الداخلية من سورية والعراق والاناضول ففيها مشاريع لهم وفيها لهم معالم كثيرة لو صبوا على جنبها الكان لهم ولا بنائهم واحفادهم منها مال حالد وعز لا يبلى .

وفي لبنان من الصناعات القديمة ما يرقى لو سعوا الى تحسينه كعمل الاقمشة والجوارب والحدادة (١) وغيرها وله مورد آخر للربح ينتفع منه الآن اكثر من سائر جبال سورية وعني به موسم المصطافين فان لبنان من سورية ومصر كسويسرا من اوربا واميركا يقصده الكثيرون كل سنة اتماساً للصحة والراحة فلو حمى اللبنانيون اكثر مما يعنون براحة من يقلون عليهم لاقاموا الصيف في كل سنة بالاقل من مليون ليرة فقد حسب اعتمادهم عدد

(١) في قرية بيت الدين من مقرات الشهابيين تصنع احراس الكتان وهذه الصناعة لا تعرف في بلاد العرب ولا في مصر قد دخلت اليها في العهد على عهد الشهابيين وكان السوريون من قبل في الاداة يستعملون النواعيس من الخشب . وما زالت هذه الصناعة محصورة في عائلة واحدة من عمال تلك القرية .

المصطافين في لبنان سنة ١٩٠٦ فكان خمسة عشر الف نسمة اكثرهم من المصريين فلو فرضنا ان الواحد ينفق عشر ليرات لكان بذلك مبلغ لايقل عن مئة وخمسين الف ليرة فما الحال لو زاد هذا العدد ونحن نرى ان سويسرا وايطاليا تربح كل منهما من موسم السياح كل سنة مالا يقل عن خمسة عشر مليون ليرة واذا زادت عناية حكومة لبنان واهله بالمصطافين في قمم لبنان لايمتم ان يجلب اليه اناساً من المصطافين من اهل اوربا نفسها خصوصاً اذا رأى السياح ان النفقة في الجبل اقل مما في جبال الالب وانها لاتبلغ مع اجور النقل في البحر والبر المبلغ الذي يصرفونه في بلاد الاصطياف.

وبعد فانا لانفتأ نكرر القول بان من الانفع لابن لبنان ان يوجه بعد الآن وجهته الى الداخلية ليعاش ويرتاش وانه اذا استفاد المهاجرون منا الى اميركا من حيث ارتقاؤهم في اقتباس بعض صول التمدن في الملبس والمأكل والمسكن فان الانفع له اليوم ان يستعمر بلاده نفسها وهي تحتاج الى اضعاف اضعافهم . وسوف يعلمون ان هذه النصيحة صادرة عن اخلاص لايراد منها الا نفع لبنان خاصة وسورية عامة فان مايقاسيه اللبناني من الم الغربة والمهانة في الاحايين واحتقار العربي له مهما بلغ من مكانته جدير بان لايسيبه بلاده والعيش بين اهله وجيرته . وقدر احد العارفين منذ ثلاث سنين ان ماحمله اللبنانيون المهاجرون الى لبنان يبلغ خمسمائة الف ليرة اي على معدل خمس ليرات لكل مهاجر فلو فرضنا ان هذا التقدير قليل وعدلناه نحن بليون ليرة فهل ان هذا المبلغ يعادل مافقد من الرجال وخسرته البلاد من قواها المعنوية والادبية